

## قراءة في كتاب أسطورة الإطار(\*)

قيس محمود حامد(\*\*)

### مقدمة

نجح بوبر(\*\*\*) في أن يلقى قبولاً وتأييداً كبيراً في أوساط المتقنين العرب، ويرجع ذلك في رأينا إلى عاملين أساسيين هما نقده للمجتمع والفكر الغربيين، وبساطة اللغة التي طرح بها فلسفته وقد كان لموسوعيته واطلاعه الواسع الدور الحاسم في القيام بهذه المهمة .

وإذا كان بوبر قد اشتهر كفيلسوف علم ، إلا أنه في الواقع لم يكن مكتفياً بتعقب مسيرة العلم انجازاً ومنهج ، وإنما أصر على ملامسة فلسفة التاريخ . "كذب النزعة التاريخية " وطرق أبواب علم الاجتماع "المجتمع المفتوح واعدائه" . فجدلية الفكر عنده إذن تبدأ بالكفر بوجود خطة وأيدٍ خفية للمدعو التاريخ تقود مسيرة التطور الإنساني نحو هدف محدد سلفاً – فالتاريخ عنده أعمى - ، مروراً بدحض الأسطورة القائلة بإمتناع قيام أى نقاش مفيد أو مثمر بين الأطر المتباينة، لتنتهي بإيمانه المطلق بالمجتمع الديمقراطي المفتوح على نفسه المنفتح على الآخر . وإذا كان لا بد لكل فيلسوف من فكرة جوهرية تدور حولها فلسفته وكتاب محوري تنزل عليه وبه هذه الفكرة، فإن هذا الكتاب بالنسبة لبوبر هو أسطورة الإطار ، والفكرة هي البساطة والوضوح في الطرح ورفض الأطر المغلقة والقوالب الجاهزة.

وعند تصفحنا للكتاب بمقدمته وفصوله التسعة نجد أن بوبر يريد أن يقول لنا شيئاً محدداً ، وهو أن الأداة الوحيدة التي يمكن أن تستخدم في بناء وترميم المعرفة الإنسانية هي النقد . وفي المقابل فإنّ ألد أعداء التقدّم في المعارف الإنسانية هي الدوجما والأطر المغلقة ولذلك فهو يصب عليها جام غضبه بل يعتبر نفسه، مناصراً أصولياً لـ(اللا إصولية) . وإذا حاولنا أن نستعرض الكتاب وفقاً لترتيب فصوله فإننا نجد أن الفصول الأربعة الأولى يتعرض فيها المؤلف لقضايا ذات طبيعة علمية صرفة . ثم يخصص الفصول الخمسة الأخيرة لموضوعات ذات صبغة فلسفية ، ولعل في ذلك إحياء ذكية من المؤلف ، بأن الطريقة المثلى لدراسة الفلسفة يجب أن تمر بالعلم .

### متن الكتاب

في الفصل الموسوم بالعقل أم الثورة يستعرض المؤلف نظريات التطور والدارونية النشوئية "اللاماركية" ويوضح الفرق بين الاثنين، ويرى أنّ النظريتان جعلت الكائنات الحية سلبية من حيث تقبلها للبيئة أو التغيرات المختلفة في الوسط

(\*) كارل بوبر : أسطورة الإطار ، ترجمة يمنى طريف، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سنة 2003م.

(\*\*) فيلسوف علم نمساوي أشتهر بنقده لمناهج العلوم التطبيقية والاجتماعية (1902-1994م.

(\*\*\*) محاضر بمعهد إسلام المعرفة ، جامعة الجزيرة، السودان.

البيئي المحيط بها . وهو يقر بذلك ، أي أن هذه البنيات المتوارثة تتعرض لضغوط معينة، أو تحديات معينة أو مشاكل معينة ، لتحديات البيئة وللمشاكل النظرية . وفي الاستجابة لهذا تنشأ التغييرات في المستوى الجيني التي هي طفرات وتوليفات " Recombinations" التوجيه المشفر في المستوى السلوكي وهي التحولات والتوليفات في المخزون الفطري من أنماط السلوك . وفي المستوى العلمي ، هي نظريات مبدئية جديدة وثنائية . إننا نظفر في المستويات الثلاثة جميعاً بمحاولة مبدئية لتوجيهات جديدة – أو باختصار محاولات مبدئية . والنظريات المبدئية هي ما يسميه بوبر بالحدوس الإفتراضية ، وهذه الحدوس كما يرى قد تحل مشكلة أو مشكلتين لكنها تفسح المجال دائماً للعديد من المشكلات الجديدة ، والنظرية الجديدة في رأيه تمارس فعلها تماماً كما لو كانت عضواً جديداً فعالاً من أعضاء الإحساس . على كلٍ يمكن أن نلخص الخلاف الأساسي كما رآه بوبر بين التغيير على المستوى الجيني ، والاستجابة له من قبل الكائن الحي أو ما يسميه بالمستوى السلوكي . في أنّ الطفرات على المستوى الجيني ليست فقط عشوائية بل أيضاً عمياء تماماً أي ليس هادفة أو ليست لها هدف معين تسعى لبلوغه . وثانياً أن بقاء الطفرة الجينية لا يحكم الطفرات الأبعد ولا ترددات واحتمالات حدوثها . هذا على الرغم من اعترافه بأن بقاء طفرة ما قد يحدّد في بعض الأحيان نوع الطفرات التي يمكنها البقاء في المستقبل .

والمحصلة الأخيرة لرأي بوبر هي أنّ التكيف يبدأ من بنية موروثه في المستويات الثلاثة : البنية الجينية للكائن الحي يباظرها في المستوى السلوكي المخزون الفطري من أنماط السلوك المتاحة للكائن الحي، ويباظرها في المستوى العلمي الحدوس الإفتراضية " Conjectures" أو النظريات العلمية السائدة . ودائماً تنتقل هذه البنيات عن طريق التوجيه ، في المستويات الثلاثة جميعاً عن طريق تكاثر البنية الجينية المشفرة في المستويين السلوكي والعلمي، و يأتي التوجيه من صميم البنية في المستويات الثلاثة جميعاً . أما إذا حدثت طفرات أو تحولات أو أخطاء فثمة توجيهات جديدة تنشأ هي الأخرى عن صميم البنية أكثر من أن تنشأ من خارجها ، من البيئة .

لكن ماذا أراد بوبر بهذا مثلاً؟ أي بمثال الموروث – الجين - والمكتسب السلوك؟ نقول أراد أن يقول بأنّ التقدم في العلم أو الكشف العلمي يعتمد على التوجيه والانتخاب ، ويعتمد على عنصر محافظ أو تقليدي أو تاريخي ، وعلى استخدام ثوري للمحاولة واستبعاد الخطأ . يقول: "بنقدنا لنظرياتنا نستطيع أن نجعلها تموت بدلاً عنا . وهذا بطبيعة الحال ذو أهمية بالغة"<sup>(1)</sup> وبدون ممارسة النقد في التقاليد العلمية لا يمكن أن نحرز أي تقدم وذلك لأنّ " أولئك المزودون بإيمان مفرط بأفكارهم غير مهيين لإحراز كشوفات " <sup>(2)</sup> .

وبذلك نرى أنّ المؤلف قد استفاد من الموروث والمكتسب في بناء رؤيته، لذلك نراه دائماً يريد أن يقود هذا المثال لنهاياته . ونهايته كانت في رفض بوبر لمسألة التوجيه من الخارج أو الاستقبال السلبي لفيض المعلومات الذي يفرض ذاته على أعضائنا الحسية . فكل الملاحظات ملقحة بنظرية ؛ ولا توجد ملاحظة صافية زهية متحررة من النظرية .. وهذا رد

(1) بوبر ، أسطورة الإطار، ص 39.

(2) نفس المصدر ، ص 41.

واضح على المنهج البيكوني في الملاحظة ، والذي يرى أنه يجب علينا أن نظهر عقولنا من كل فكرة مسبقة لنبدأ الملاحظة ، ولكن بوبر يعترض على ذلك بقوله أننا لا نستطيع أن نبلغ الموضوعية بعقول خاوية ... إنّ الموضوعية تعتمد على النقد وعلى المناقشة النقدية والاختبار التجريبي النقدي ، فباستمرار النقد هو الحل ... ولكن النقد وحده لا يمكن أن يكون نظرية فتكوين النظرية كما يرى بوبر ذو شقين؛ يعتمد الأول على الجانب الميزة التراكمية للعلم أي العلم في تأريخه وحاضره ، أما الجانب الثاني فهو الجانب الثوري في النظرية الجديدة .. فلكي تشكل نظرية جديدة كشافاً وخطوة إلى الأمام لابد من أن تدخل في صراع مع سابقتها ويجب أن تطيح بها . فتكون لها السيادة الوقتية إلى أن تتم الإطاحة بها بواسطة نظرية أخرى وبذلك فإن التقدم اللافت للعلم كما يرى يكون دائماً ثورياً .

على كل حال فإنّ بوبر يرى أن الثورات العلمية ثورات عقلانية - أي من حيث المعيار الذي تفصل به بين النظريتين المتصارعتين - ولكن هذا لا يمنع الاستثناء والتجاوز بطبيعة الحال . وهذا التجاوز يمكن أن يكون ناتجاً عن العقبات التي تعوق تطور العلم والتي يقسمها بوبر إلى فئتين . **العقبات الاقتصادية ، والعقبات الأيديولوجية .** من الناحية الاقتصادية ربما يمثل الفقر عقبة . على الرغم من أنّ ثمة كشافاً نظرية وتجريبية عظمى أنجزت مع الفقر . وعلى أي حال بات واضحاً جداً كما يقول بوبر في السنوات الأخيرة أن الترف يمكن أن يكون هو الآخر عقبة . الجنيهات الوفيرة جداً قد لا تمسك إلا بأفكار ضئيلة للغاية ومع هذا نعتزف جميعاً بأن التقدم يمكن أن يحرز حتى في ظل هذه الظروف العكسية<sup>(1)</sup> .

أما الأيديولوجيا فتأثيرها باستمرار سلبي ، وهو يوسع مفهوم الأيديولوجيا ليشمل النظريات العلمية السائدة والمعتقدات السياسية والدينية والأيديولوجيا هي واحدة من الأطر المغلقة التي يسعى بوبر إلى تحطيمها . أما العقبات الأخرى فيمكن أن تكون فردية أي نابعة من داخل الفرد أو اجتماعية أو خلافه . ومع هذا فهو يرى أنّ قدرّاً من الدوجماتيكية ضروري للتقدم ، ومن دون صراع جاد من أجل بقاء النظريات القديمة حيث يسود التشبث بها والدفاع عنها ، فلن تكشف أي من النظريات المتنافسة عن همتها وعزمها أي عن قوتها التفسيرية ومحتوى الصدق فيها ، فبقدر ما يكون الدفاع مجيداً تكون النتائج باهرة وموثقة العرى باليقين .

### الأسطورة وتكذيب الأسطورة :

إنّ الأسطورة التي يسعى بوبر إلى تكذيبها تقول : أنّ المناقشة العقلانية والمثمرة مستحيلة ما لم يتقاسم المساهمون فيها إطاراً مشتركاً من الافتراضات الأساسية أو على الأقل يتفقوا على مثل هذا الإطار لكي تسير المناقشة . والمقصود بالإطار هو فئة من الافتراضات الأساسية أو المبادئ الرئيسية أي أنه إطار عقلي .

(1) بوبر ، أسطورة الإطار ، 47.

وهذا الطرح هو طرح النسبيين أو "النسبويين" كما أردتها د.يمنى كترجمة "Relativist". فهم يطرحون عدد من المقاييس لأبد من استيفائها حتى تكون المناقشة مثمرة أما إذا فشلنا في استيفائها فإنهم يزعمون عند إذن أن المناقشة تكون مستحيلة .

بوبر يسوق عدداً من الحجج يؤكد بها أنّ المناقشة والتفاهم ممكن على المدى البعيد إذا توافرت له لإرادة الخيرة المشتركة وبذلنا ن أجله جهداً وافرأُ بالإضافة إلى جهدنا السابق والمتمثل فيما نتعلمه عن آرائنا الخاصة وبالمثل عن آراء أولئك الذين نسلك سبيل التفاهم معهم . ولكن هل المناقشة الخصيبة المثمرة بين الأطر المختلفة ممكنة فعلاً ؟ هنا يورد المؤلف الأقصوصة التي أوردها هيرودوت والتي مفادها أنّ ملك الفرس (داريوس) الأول أراد أن يلقي الإغريق المقيمين في إمبراطوريته درساً. وإذا حدثت هذه المجابهة المحددة أصلاً، فإنّ بعض المساهمين قد يتصرفون بالطريقة المستنيرة التي رغب هيرودوت في أن يتصرفوا بها إزاء أقصوصته، ولكن رسالة الأقصوصة يمكن أن تأخذ شكلاً آخر . إذ يمكن أن تعتبر دليلاً مفهماً على استحالة التفاهم ، وهو الموقف الذي يخرج به المشاهد العادي من تلك المجابهة وذلك لان ما ينتظره المشاهد العادي لم يحدث ولذلك قرر فشل المجابهة - فقد كان ينتظر الموافقة أو الاتفاق - ولذلك كانت هذه هي النتيجة التي خرج بها أما إذا نظر إلى الفائدة التي حصلها كل فريق من هذه المجابهة لتغيرت نظرتة حتماً .

إذن فإن هذه الحضارة العقلانية الغربية تتكون من عناصر فبالرغم من وصفها بالعقلانية ، إلا أن العنصر أو المكون الأول هو المكون الشعري المتمثل في الأقصوصة أو الأساطير التي تفسر العالم وهو عنصر محلي تنامي فيها من الداخل بفعل الحضور اليوناني والروماني المتميز في الحضارة الأوربية بالإضافة إلى الحضارات الأوربية الأخرى ، خاصة وأنه عنصر ما قبل حضاري - أي الأساطير -

أما العنصر الثاني فهو العقلانية النقدية التي أتت لاحقاً والتي يجعلها بوبر يونانية صرفة ويؤرخ لبدائها مع انكسندر تلميذ طاليس . ويرى أن هذا العنصر عنصر المناقشة النقدية. هو عنصر مكوّن للتقليد العلمي .

يعود بوبر ليسأل سؤالاً جوهرياً وهو هل الاتفاق مرغوباً دائماً ؟ وبما أنه ليس من السهل عليه أن يجيب إجابة حاسمة فقد تركه بلا إجابة مباشرة ولكننا يمكن أن نتحسسها من خلال مداخلته العديدة في ما يتعلق بهذا الموضوع . .. أما إذا أتينا إلى المراحل التي يظل العلماء خلالها منهمكين في العمل داخل إطار فتعتبر مرحلة نمطية، أنها مراحل العلم العادي والعلماء الذين يعملون بهذه الطريقة يعتبرون "علماء عاديين"، ولكن يمكن أيضاً أن نفكر في الإطار لا باعتباره يتألف فقط من (نظرية سائدة) لكن أيضاً من ناحية ما، بوصفه كياناً سيكولوجياً وسوسولوجياً . فإن هذا الإطار يمثل رابطاً أو جامعاً للمشتغلين به والواقعين في أسرته كما تفعل الكنيسة أو المعتقد السياسي أو الأيديولوجيا . " إن أنصار أسطورة

الإطار يميزون تمييزاً حاداً بين المراحل العقلية للعلم التي تساس داخل الإطار والتي يمكن وصفها بأنها وثبة لا عقلية من إطار إلى آخر، تضاهي الارتداد عن الدين.<sup>(1)</sup>

ولذلك فإن الأطر إذا كان مصدرها الأسطورة الشعبية أو النظرة القائلة بأن كل مناقشة عقلية لا بد أن تبدأ من مبادئ أو من بديهيات كما تسمى أحياناً وهذه بدورها لا بد أن تكون مقبولة قبولاً دوجماتيقياً، إذا رغبتنا في تفادي ارتداداً نهائياً ارتداداً يعود إلى واقعه تدعم أننا حيث نضع صحة مبادئنا أو بديهياتنا للنقاش العقلاني، لا بد من أن نلتجئ إلى مبادئ أو بديهيات. فهؤلاء بقولهم أن هناك نوع من المناقشة لا يسعى إلى البرهان أو الإثبات وذلك مثل المناقشة التي تحاول اختبار النظرية موضع النقاش عن طريق اكتشاف ما إذا كانت نتائجها " Consequences " المنطقية مقبولة كلها، أن هناك بعض النتائج غير مرغوب فيها. وذلك أراده المؤلف أن يكون آخر مبرر لتكذيب أسطورة الإطار .

في مواجهة مدرسة فرانكفورت

كانت أصل المناقشة بين بوبر وأعضاء مدرسة فرانكفورت هو مؤتمر في توبنجن في ألمانيا .، ولكنه لم يكن راضياً عن الطريقة التي نظم بها هذا المؤتمر ولا بالنتائج التي خلص إليها حيث أسىء فهمه وصعق ضمن فلاسفة الوضعية . أما موقفه من مدرسة فرانكفورت فيبدو واضحاً من رأيه في روادها فهو يرى : أنه من الصعوبة بمكان أن يناقش أي مشكلة مهمة مع البروفيسور هابرماس. " أنا واثق بأنه مخلص تماماً ولكن لا أعتقد أنه يعرف كيف يطرح الأمور ببساطة ، ووضوح وتواضع بدلاً من أن يطرحها بصورة مؤثرة . معظم ما قاله يبدو لي تافهاً . والبقية تبدو خاطئة " (1) . وأيضاً فأنا أقول إن مهمة العلوم النظرية هي أن تحاول الإرهاص بالمعقبات غير المقصودة لأفعالنا ، وبهذا أضغ فارقاً بين هذه المهمة النظرية وبين الفعل . ولكن يبدو أن البروفيسور هابرماس يعتقد أن أحداً لا يستطيع إخراج حجج نقدية مهمة عن المجتمع إلا إذا كان ناقداً ممارساً للمجتمع القائم طالما أنه لا يمكن فصل المعرفة الاجتماعية عن المواقف الاجتماعية الأساسية .

غير أن بوبر يرى بأنه يجب علينا أن نقبل بأي اقتراح لحل مشاكلنا ، بصرف النظر عن الشخص الذي تقدم به ومواقفه تجاه المجتمع شريطة أن يكون قد تعلم كيف يعبر عن نفسه بوضوح – بطريقة يمكن فهمها وتقييمها . وأن يكون على وعي بجهلنا الأساسي وبمسئولياتنا تجاه الآخرين . وفي نفس السياق يرى بوبر أن السجال حول إصلاح المجتمع لا ينبغي أن يستأثر به أولئك الذين يرون أن الوظيفة الوحيدة للعقلية الثورية هي أن تعين قصارى ما تستطيعه مما هو منفر وقميء في حياتنا الاجتماعية باستثناء الأدوار الاجتماعية الخاصة بهم .

(1) بوبر ، أسطورة الإطار ، ص 86.

(1) بوبر : أسطورة الإطار ، ص 100.

ويحاول أيضاً في هذا الكتاب أن يعطي نوعاً مع المشروعية للميتافيزيقا أو النظريات التأملية ، " لقد حاربت من أجل الحق في حرية العمل بالنظريات التأملية في مواجهة ضيق أفق نظريات المعرفة "المتعالمة" وخصوصاً في مواجهة كل أشكال الإمبريقية الحسية" (1) .

ولذلك فهو يرفض محاكاة العلوم الاجتماعية للعلوم الطبيعية ويرى أن النظرية الوضعية في المعرفة - الابستمولوجيا الوضعية - غير كافية حتى في تحليلها للعلوم الطبيعية. وأثبت أن الملاحظات دائماً ملقحة بنظرية ، وأن وظيفتها الأساسية هو اختبار النظريات بدل أن تكون مهمتها مجرد إثباتها .

أما فيما يتعلق بنقده لأدورنو . فهو في البدء يقسم أعماله إلى ثلاثة فئات . الأولى هي مقالاته في الموسيقى والآداب أو الثقافة وقد وجد فيها بوبر تقليداً مبتدلاً للكاتب النمساوي كراوس " karl Kraus " ، أما المجموعة الثانية فهي في الابستمولوجيا أو الفلسفة عموماً ووجدها بوبر ليست أكثر من تخاريف وخز عبلات " Mumbo - Umbo " ولذلك فإنه يقول " بالنسبة لأدورنو ، فإنني لا أستطيع الاتفاق ولا الاختلاف مع القطاع الأكبر من فلسفته . وعلى الرغم من بذل غاية الجهد لفهم فلسفته ، تبدو لي بأسرها أو في معظمها مجرد حشد ألفاظ . لا شئ لديه البتة ليقوله . وهذا اللاشئ يقوله بلغة هيجلية . (2)

أما المجموعة الثالثة من أعمال أدورنو كما - يرى بوبر - عبارة عن شكاي من العصر الذي نعيش فيه ، إنها تعطينا تعبيراً مباشراً عن مخاوفه : عن قلقه ولكن بوبر يرى أنه على الرغم من أن تشاؤمية أدورنو تعتبر تشاؤمية فلسفية إلا أن محتواها الفلسفي يعتبر صفرأ . لأن أدورنو يعارض الوضع بقصد وتعمد . ويستغرب بوبر كيف يصر أدورنو على عدم الوضع رغم أنه ماركسي في حين أن ماركس نفسه يعتبر نصيراً للتنوير . ثم يعرج بوبر إلى الكتاب الذي كتبه أدورنو بالاشتراك مع هوركهايمر - ديالكتيك التنوير - والذي يرى فيه بوبر ردة عن التنوير، بنظرته الرومانتيكية التي ترفع شعار مزيد من الظلام . الأمر قد يكون مختلف بعض الشيء بالنسبة لهوركهايمر حيث نجد أن كتاباته هي الوضع ذاته كما يرى بوبر ولكن في المقابل فإن نظريته النقدية ليست أكثر من خداع وفراغ أنها تخلو من المضمون . ولعل ذلك هو الذي جعل ناشر كتابه " النظرية النقدية" يقول : من المستحيل تقريباً أن نصب تصور هوركهايمر في قالب قضايا قابلة للفهم " (1)

ويتساءل بوبر كيف لمفكر ماركسي أن يخلص إلى هذه النظرة التشاؤمية . إن إدانة ماركس ذاته لمجتمعنا لها مغزى ، كما يرى بوبر : لأن نظرية ماركس تستبقي الوعد بمستقبل أفضل .

(1) بوبر : أسطورة الإطار ، ص 102.

(2) بوبر : أسطورة الإطار ، ص 104.

(1) بوبر : أسطورة الإطار ، ص 105.

أما إذا تخيلنا عن هذا الوعد ، كما فعل أدورنو وهوركهايمر ، فتغدو النظرية خاوية وغير مسؤولة . لهذا السبب وجد أدورنو الحياة غير جديرة بأن تعاش ذلك لأن الحياة لن تكون جديرة بأن تعاش إلا إذا استطعنا العمل من أجل عالم أفضل الآن وفي المستقبل القريب جداً .

#### العلم : المشكلات .. الأهداف .. المسئوليات

يمكن إجمال نظرة بوبر لمنهج العلم بأسره في القول إنه يتألف من هذه الخطوات الثلاثة :

أولاً : نعثر على المشكلة .

ثانياً : نحاول أن نحلها ، عن طريق اقتراح نظرية معينة مثلاً .

ثالثاً : نتعلم من أخطاءنا ، خصوصاً من الأخطاء التي تتضح أمامنا بفعل المناقشة النقدية لحلولنا – مناقشة تنزع إلى أن تفضي إلى مشكلات جديدة أو بكلمات محدودة .- مشكلات ، نظريات ، نقد .

فدائماً تخلق الإطاحة بنظرية ما مشكلات جديدة . ولكن حتى النظرية الجديدة التي لم تتم الإطاحة بها بعد سوف تخلق مشكلات جديدة . فليس صحيحاً ما يراه فلاسفة العلم أن هناك بنيات من المعرفة تسمى العلم يتشكل بصورة أساسية من النظريات المقبولة .. بل أن هذه هي من بقايا آثار النظريات السلطوية في العلم منذ بيكون في العام 1600 .. فلاسفة العلم يستخدمون مصطلح مقبول أو يمكن قبوله كـ "معتقد فيه" أو "جدير بأن يعتقد فيه" . ربما كان في العلم دفعة من النظريات صادقة ومن ثم جديرة بأن نعتقد فيها . لكن وفقاً لوجهة نظر بوبر ، فإن العلم لا شأن له بهذه الجدارة ، فالعلم لا يحاول أبداً أن يؤسس أو يبهر هذه الجدارة ، بل على العكس تماماً أنه يعينه نقدها . إن هدف العلم في نظر بوبر يتمثل في الإطاحة – حتى بأجمل نظرياته وأشدّها إثارة للإعجاب . كما أشرنا فإن أطروحة بوبر الرئيسية فيما يتعلق بالنظريات العلمية وكيفية التطور العلمي . هو أننا نبدأ دائماً من مشكلات . ومن مشكلات علمية ، أو من نظرية وقعت في صعوبات أي نظرية أثارت توقعات معينة خابت . إذن فإن بوبر يرفض الاعتقاد القائل بأن المشكلات لا بد أن تكون نتيجة للملاحظة والتجربة . أي الاعتقاد بأن العقل يولد صفحة بيضاء تخط عليها التجارب التي نكتسبها عن طريق الحواس وخطها .

إذن يمكن القول بصورة مبدئية أن العلم يبدأ من النظريات ، من الإنحيات ، من الخرافات والأساطير – والأحرى أنه يبدأ حيث يحدث تحد لأسطورة فنتهار ، أي حينما تخيب بعض توقعاتنا . ولكن هذا يعني أن العلم يبدأ بمشكلات ، مشكلات عملية أو مشكلات نظرية ، وليس من ملاحظات كما هو شائع . على كلٍ يمكن أن نوجز أهم النقاط التي تعتبر بمثابة إسهام بوبر في فلسفة العلم . وهي :

- أن المعرفة العلمية بأسرها فرضية أو حدسية افتراضية .
- يتوقف نمو المعرفة خصوصاً المعرفة العلمية على التعلم من أخطائنا .
- الحجج المستقاة من التجارب و الاختبارات التجريبية هي أقوى الحجج المستخدمة في المناقشة النقدية .

- التجارب تسترشد دائماً بنظرية ، بحس باطني نظري غالباً ما يكون المجرب على غير وعي به .
  - ما يسمى بالموضوعية العلمية يتوقف دائماً على المقاربة النقدية لا غير .
  - الدور الأساسي الذي تلعبه النظريات أو الفروض أو الحدوس الافتراضية في العلم يجعل من الأهمية بمكان أن نميز بين النظريات " القابلة للاختبار " أو النظريات القابلة للتكذيب والنظريات الغير قابلة للاختبار أو الغير قابلة للتكذيب " .
  - لا يمكن أن تحمل أي نظرية خبراً عن العالم التجريبي ما لم تدخل من حيث المبدأ في صدام مع العالم التجريبي .
  - القابلية للاختبار لها درجات : النظرية التي تقرر أكثر وبالتالي تضطلع بمخاطرة أعظم ، تكون أفضل في القابلية للاختبار من النظرية التي تقرر النذر اليسير .
  - كان المذهب السلطوي في العلم مرتبطاً بفكره التأسيس ، بمعنى إثبات نظرياته أو التحقق منها . بينما ترتبط المقاربة النقدية للعلم بفكرة الاختبار ، بمعنى محاولة تنفيذ حدوسه الافتراضية أو تكذيبها .
- ويخلص من كل ذلك إلى فكرة جوهرية وهي فكرة التحرير الذاتي من خلال المعرفة – ولكن شأنها شأن أي فكرة عظيمة لها مخاطرها الواضحة كما يقول بوبر ، إلا أنها تظل فكرة عظيمة للغاية . لذا يجب اعتناقها والعمل على تنقيحها وتطويرها ، فبالقطع ليس في المستطاع نبذها بعد الآن وإلا نكون قد حكمنا على أنفسنا بالموت .

### المسئولية الخلقية للعالم

فيما يتعلق بمسئولية العالم الأخلاقية تجاه العالم الذي يعيش فيه فإن بوبر يرى أنّ هذه المشكلة بالغة القدم ، وشأنها شأن العديد من المشكلات الأخرى ، كان الإغريق أول من طرحها .. ويستشهد بقسم أبو قراط حيث يلتزم الطالب المبتدئ بالاعتراف بمعلمه .. وأن يطلع بتقاليد مهنته حتى يصل إلى أعلى مصافها .. وأن لا يدخل بيتاً إلا لكي يساعد من يعانون المرض، وأن يحفظ سر ما قد يعرفه عن هذا البيت في أثناء ممارسته للمهنة .

إنّ مسئولية العالم الخلقية تجاه العالم كما تصورها بوبر ذات شقين شق يتعلق بالجانب الفني للعالم من حيث تجويد مهنته وشق يتعلق بتوظيف العلم لتحقيق الهدف الأسمى والمتمثل في رفع المعاناة .. ذلك لأنه إذا كانت السعادة تتم بمبادرة شخصية فإن تخفيف المعاناة التي يمكن تفاديها يقع ضمن مشكلات السياسة العامة .. ولذلك فإن علينا جميعاً بوصفنا باحثين أو علماء أو حتى بشراً عاديين ، أن نبذل كل ما في وسعنا لنعين على وضع نهاية للحروب ، وهذه الجهود الواجبة يتمثل جانب منها في العمل على أن نوضح لكل شخص ما الذي تعنيه الحرب ليس فقط بلغة الموت والدمار بل أيضاً بلغة الانحطاط الأخلاقي . ولذلك فإن بوبر يرى أن لا مشكلة تبارى في إلحاحها مشكلة تفادي الحروب إلا مشكلة تفادي الطغيان، إنه خطر فقدان حريتنا (وفقدان حريتنا - بدوره - يؤدي في النهاية إلى الحرب، هذا التباري بين المشكلتين يجعل اتخاذنا للقرارات صعباً في بعض الأحيان . إذن فإن مشكلة تفادي الطغيان هي إحدى المشكلات الرئيسية التي تترتب عليها

مسئوليات العالم .. بل أنه يرى أن صنع القنبلة الذرية نفسه كان للتصدي للاستبداد ... فلو كانت اليابان تمتلك هذه القوة لما أمكن على الإطلاق مهاجمتها بها بالطريقة المأساوية تلك .

وفي النهاية فإنه مادام العالم الطبيعي قد بات مشتبكاً بتطبيقات العلم اشتباكاً لا فكاك منه وجب على العالم أيضاً أن يجعل إحدى مسؤولياته الخاصة أن يتنبأ قدر المستطاع بالنواتج غير المقصودة لعلمه وأن يلفت الانتباه إلى النتائج التي ينبغي أن نناضل لتجنبها، ومن أولى بشائرها.

موقف من التاريخ وفلسفته :

إنّ ما يمكن أن نسميه بفلسفة التاريخ يدور دائماً حول ثلاثة أسئلة كبرى :

1- هل هناك خطة للتاريخ ، وإذا كان ثمة خطة ، فما هي ؟.

2- ما فائدة التاريخ ؟

3- كيف ينبغي علينا كتابة التاريخ ، أو ما هو منهج التأريخ (1) .

ولقد أطلق اسم النزعة التاريخانية " Historicism " على النظرية التي تقول بوجود خطة للتاريخ ، سواء أكانت إيمانية أو إلحادية؟ والواقع أن اسم النزعة التاريخانية لا يعدو أن يكون بطاقة اصطلاحية يقدمها بوبر كطريقة نتفق عليها للحديث عن نظريات شتى متصلة معاً . وهو ينبه إلى إنه لم يكن يناقش مبدأ نسبية التأريخ بوصفه نزعة تاريخية " Historism " .

إن روح العصر بالنسبة للتاريخاني كما يرى كيان يفسر أفعال وأقوال الذين يعيشون في هذا العصر ، تفسيراً واسع النطاق أو على الأقل تفسيراً جزئياً . ورغم أنه يرى هذا الموقف خاطئاً تماماً ، ولكن ذلك لا يعني بالنسبة له عدم وجود مشكلة . يجب أن ندونا إذن بروح العصر لنقترب من وضع ظاهرة اجتماعية علينا أن نفسرها . ولا بد أن نفسرها عن طريق وجود مشاكل ملحّة وعن طريق التفاعل بين الأفراد وتخطيطاتهم وأهدافهم ، وهذا يعني أن نفسر روح العصر بمصطلحات منطق المواقف .

أما فيما يتعلق بعلاقة التأريخ بالعلم ، فيرى بوبر أن المؤرخ يجب أن يلم بقدر ما بالعلم وتاريخه . فلا يستطيع أحد أن يتفهم أي تاريخ حديث من دون أن يتفهم شيئاً ما عن العلم . وفي المقابل فإنك لا تستطيع أن تفهم نظرية علمية فهماً حقيقياً من دون أن تفهم تاريخها . ولذلك فإنه يؤكد بأن التأريخ قد يكون مهماً في حد ذاته ، ولكنه بصورة أكبر بقدر حلولها التي يطرحها للمشكلات التاريخية المهمة . مثل، كيف اندلعت الحربان العالميتان؟ وهل كان من الممكن تفاديهما . ثم يأتي ليقول " أنا أتفق مع برلين(\*) بأن مناهج التأريخ هي مناهج الحس المشترك " أو كنت دائماً أتفق فعلاً مع هذه النظرة .

(1) بوبر ، أسطورة الإطار ، ص 159.

(\*) اسحق برلين: أشهر كتبه أفكار في السياسة.

وأتفق مع البروفيسور تريغور روبر في أنه لا شيء في التأريخ أسوأ من الاحترافية الضيقة ، وكنت دائماً أتفق مع هذه النظرة . واتفق مع كولونجود ومع دلتاي ومع هايبك في أننا لا بد أن نحاول تفهم الأحداث التاريخية .  
ورغم أن بوبر قد بدأ مبحثه محاولاً إيجاد علاقة بين التأريخ والعلم إلا أنه عاد ليقرر أن الاختلافات بين منهجية التأريخ ومنهجية العلوم الطبيعية اختلاف شاسع . فنحن على يقين من أننا في العلوم الطبيعية كما هو معروف جيداً ، نبدأ من الملاحظة ونسير في طريق الاستقراء إلى النظرية ، يبدو واضحاً أننا في التأريخ نسير في مسار مختلف تماماً .  
ولكن بوبر يعود برسم تخطيطاً معرفياً لمسيرة التطور في العلم وغيره بنفس المعطيات ، فإن البداية دائماً تكون من مشكلة فيوضع لها حدس افتراضي أو من نظرية مبدئية ثم تدور مناقشات نقدية حول هذا الحدس . فتتولد مشكلة جديدة .

م ن د ق ق م 2 ← ← ←

إذن فإنه يحاول أن يثبت أن هناك تشاركاً بين المنهج الفعلي للعلم والمنهج الفعلي للتأريخ أكثر مما تصور معظم المؤرخين بل أن التماثل يمتد إلى سوء التأويلات التعاليمية للمنهجين .  
والتأريخ بذلك تعددي – لا يتعامل مع الإنسان فقط بل مع الناس وفوق كل هذا يسمح لنا بإثارة مشكلة إلى أي حد - ضاق أو اتسع – تأثر الناس بنمو المعرفة وتأريخ الفن وتطور الإنسان . ويزعم أن هذه المشكلة واحدة من كبريات مشاكل التأريخ .

### مشكلة العلوم الاجتماعية مقارنة منهجية :

يرى بوبر أن المناهج الملائمة للعلوم الاجتماعية تختلف بالكلية عن مناهج العلوم الطبيعية ، كما تعرضها عادة الكتب المدرسية والعرف العلمي والغالبية العظمى من علماء العلوم الطبيعية والاجتماعية ، ولكن هذا لمجرد أن تلك الكتب وهذه الأعراف وأولئك العلماء في جملتهم على خطأ بالكلية بشأن مناهج العلوم الطبيعية . وحالما ننظر بتفهم منضبط لمناهج العلوم الطبيعية ، نستطيع أن نرى مساحة واسعة من التشارك بينها وبين مناهج العلوم الاجتماعية .  
إن الخطأ الرئيسي فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية هو الاعتقاد بأنها تبدأ من الملاحظة وجمع المعطيات أو الوقائع أو القياسات ومن ثم نسير قدماً نحو ربطها أو التضاييف بينها وهكذا تصل تلك العلوم بشكل ما – إلى التعميمات أو النظريات ..  
في حين أن الواقع يقول أن الملاحظة لا بد أن تبدأ انطلاقاً من نظرية وهنا يضرب بوبر مثلاً يقول :-

هب أنك وقفت أمام عدد من الطلاب وطلبت منهم أن يسجلوا ملاحظاتهم خلال فترة حددتها بعشر دقائق أو ساعة مثلا .. فإن أغلب الظن أنهم لن يسجلوا شيئاً لأنهم لا يعرفون الشيء الذي عليهم أن يسجلوا عليه ملاحظاتهم . إذن فلا يمكن أن تتم ملاحظة بغير نظرية ، بغير حدس افتراضي .. مع العلم بأن النظرية دائماً تبقى فرضية أو حدسية افتراضية . تبقى دائماً عملاً من أعمال التخمين . ولا توجد نظرية لا نكتنفها المشكلات . ذلك أن المشكلة ما هي إلا صعوبة ، وأن تفهم المشكلة ما هو إلا أن نكون على وعي بماذا عساها أن تكون تلك الصعوبة المرصودة .

ويمكن أن نلخص منهج بوبر في حل المشكلات وهو المنهج الموسوم بمنهج المناقشة النقدية في الآتي :

1- ننقّي مشكلة ما – ربما نعثر عليها مصادفة .

2- نحاول حل المشكلة عن طريق اقتراح نظرية كحل مبدئي .

3- من خلال المناقشة النقدية لنظرياتنا تنمو معرفتنا عن طريق حذف بعض الأخطاء .

4- المناقشة النقدية حتى لأفضل نظرياتنا تكشف دائماً عن مشكلات جديدة .

أي هو عبارة عن مشكلات - نظريات - انتقادات - مشكلات جديدة .

أما الملاحظة المهمة في هذه المقاربة فهي رؤية أو وجهة نظر بوبر في أن ما نسميه بالموضوعية العلمية ليس سوى أن النظرية العلمية لا تُقبل كعقيدة قاطعة " Dogma " وأن كل النظريات مبدئية ومفتوحة في كل وقت للنقد القاسي ، لمناقشة عقلانية نقدية تهدف إلى إستبعاد الأخطاء ومصدراً لذلك فإننا نجد أن واحداً من أبلغ وأهم أشكال المناقشة النقدية للنظريات - إنما هو الاحتكام إلى الملاحظة والتجربة والقياس، فإذا استطعنا إظهار أن معقبات -نتائج- نظرية ما لا تتفق مع وقائع معينة ، أو ملاحظات أو مقاييس معينة ، إمتلكنا حينئذ حجة قوية ضدها . بل ولربما نقضي عليها تماماً ، وخصوصاً إذا استطعنا إظهار أن نظرية ما منافسة لها تستطيع تفسير التجربة التي كذبتها . بيد أن الملاحظات والتجارب والمقاييس مثيرة للاهتمام فقط في سياق المناقشة النقدية لنظرية ما . فلا هي نقطة بدايات للعلم ولا هي معطيات .

ويعترف بوبر بل ويدعو للاعتراف أيضاً بأن أنجح النظريات العلمية ما هي إلا تبسيطات مفرطة سعيدة الحظ . وعلى الرغم من أن هذا لا يطعن بالضرورة في صحة القوانين العمومية ، ولكن يبدو أن الطعن في الصحة لا مندوحة عنه البتة بالنسبة إلى تشييد النماذج، في العلوم الطبيعية وفي العلوم الاجتماعية على حدٍ سواء ، وذلك لأن النماذج تبسيط مفرط للوقائع ، ولهذا لا تمثلها بصدق .

#### السلطة أم الفلسفة :

في الفصل الأخير يناقش عدد من الموضوعات مثل خطورة التقبل اللاعقلاني للأفكار الفلسفية ويرفض فكرة أفلاطون عن الملك الفيلسوف أو الفيلسوف الملك ... ثم يعرج على مكونات الحضارة الأوربية الحديثة - التصنيع - العلم - الحرية الفردية ، ويرى أن التطور الصناعي والتطور العلمي اللذين حدثا منذ عصر النهضة كلاهما تحقيقاً لتلك الفكرة الفلسفية ، فكرة سيادة الإنسان على الطبيعة ..

ويرى أن مجمل حركة الليبرالية منذ حركة الإصلاح حتى يومنا هذا قد حدثت في جو تهيمن عليه تفاؤلية ابستمولوجية مفرطة ولا نقدية ، هذه التفاؤلية قادت خطى الليبرالية عبر طريقين - الطريق الأول يمتد قدماً من حركة الإصلاح إلى حرية العبادات ، أما الطريق الثاني فيمتد من خلال خيبات الأمل في نظرية الحقيقة البينة وصولاً إلى النظرية القائلة بوجود مؤامرة ضد الحقيقة .. ولكن رغم ذلك فإن هذا الطريق قادنا إلى مطلب لا يقدر بثمن إنه مطلب حرية التفكير . وأخيراً أوصلنا إلى مطلب حق الانتخاب العام . فلا يمكن أن يخطئ الناس مادامت الحقيقة بينة . وطالما كان الناس يستطيعون إدراك الحقيقة .

**الخلاصة:** وإذا أردنا أن نلخص مجمل ما جاء من آراء لبوبر في هذا الكتاب فإننا نقول أن بوبر ينطلق من مسلمة أساسية وهي لا قداسة للعلم ولا لنظرياته وبما أن النظريات غير مقدسة فهي متناهية ، ولذلك يجب أن نُعمل فيها النقد . وأراد أن

يقول أيضاً أن النظريات العلمية لا تكفي مجالها الذي خصصت لبحثه ، ولذلك فهي في حاجة مستمرة للنقد والتعديل .. وإذا كانت هي كذلك في مجالها فإنه أولى أن لا تتعداه إلى مجال العلوم الاجتماعية الأخرى .. وبإصلاح العلم كانت النهضة وكان التصنيع وتم تحرير الإنسان من أسر الطبيعة.

أما إذا اردنا أن نتحرر من أسر التخلف واللاحق بركب الحضارة الذي لن يتوقف بعد الآن فعلينا أن نتمسك بسلطان النقد لمعارفنا. فقد أصبح في حكم اليقين اليوم أنّ مكنم الداء في مذهبنا وفي الطريقة التي نتعاطى بها مع العلم.